العرب
السبت 2021/07/10
السنة 44 العدد 12115

مهرجان كان.. حين تنتصر السينما على الجائحة

ثلاثة أوقفوا «كان»: الحرب العالمية، حركة مايو 68.. وكورونا

يكاد كل شيء يكون هو نفسه أو يتجدّد بشكل يدعو إلى الرتابة منذ سنوات التأسيس التي سبقت الحرب العالمية الثانية (1939)، والتي عطلت انطلاقته الحقيقية، فكان عليه الانتظار إلى سنة 1946 كي يغدو قبلة لعشاق الفن السابع. ولم يعطل سير هذا العرس السينمائي سوى حدثين مزلزلين: الأول مدّ ثوري من صنع الاحتجاجات الطلابية المعروفة بحركة مايو 1968، والثاني وباء فايروسي بات يعرف بكوفيد - 19.

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

تـرى، ما الذي يمكـن أن تلتقطه عينا مراقب حصيف لمهرجان كان السـينمائي هذا العام، ويصلح أن يختزل هذه الدورة في رمزية مختصرة ومعبرة؟

لا شـيء مميزا يمكن أن تلتقطه عينا مراقـب حصيف للـدورة 74 من عمر هذا المهرجـان، غير جديد الأفـلام والنجوم، سـوى ظهور عدد من النجمات بشعرهن الأبيـض، كالأميركيـة آنـدي ماكدويـل ومواطنتهـا جـودي فوسـتر، خلافا لما درجت عليـه الممثلات اللواتـي يتجنبن عـادة تـركَ شـعرهن علـى طبيعته في إطلالاتهن علـى السـجادة الحمراء.. فما دلالة ذلك؟

إنهـا تعبيرات كورونا المتمثلة في ما يمكـن أن يخلقه الحجر الصحي من آثار ظاهرية وباطنية تتمثل في اسـتخلاص الحكمـة من العمر الـذي لا يمكن تحديه عبر الماكياج وقصات الشعر بل من خلال أعمـال تخلدهـا الكاميـرا عبـر معجزة السينما.

تخوّفات وتحدّيات

عـودة مهرجـان كان هـذا العام بعد اختفائـه القسـري أو الطوعـي السـنة الماضية، بسبب الجائحة، أثارت تعليقات متباينة التفسيرات، فمنهم من رأى مدينة كان قـد عـادت تعيش بعضـا ممّا صنع مجدها وشـهرتها في العالم، وعاد إليها أهل السـينما، في مشـهد مبهج يواكب تفاصيل العـودة إلى الحياة التي تحدث تدريجيا في كل مكان.

المهرجان إعادة إطلاق للسينما بعد صدمة كورونا وإقامته تعني دفعة للسينما بعد أكثر من عام من الخوف وتوقف الكثير من الأنشطة

ومنهـم مـن رأى أن ما يحـدث على "الكروازيـت" من حشـد غفيـر و"تقارب اجتماعي" أمـام القصر الـذي تقام فيه التظاهـرة، لحظة الافتتـاح، يدلّ على أن الوباء قد انتهى أو سقط من الحسابات، وأن الجمهـور ملّ وما عاد يكترث كثيرا، فـي حـين يتوجـس كثيـرون ويبـدون مخاوفهم من عودة هذا القاتل الشبح في الشتاء على إيقاع موجات جديدة كما في أفلام الرعب.

القائمـون علـى التنظيـم يراهنون علـى أن تكـون هـذه النسـخة، علامـة علـى التجـاوز الجزئي للجائحـة التي رهنـت العديد مـن الفعاليـات الثقافية عبر العالم لأكثر من عـام. وقال المفوض العـام للمهرجان تييـري فريمو "لم ننته من الجائحـة بعد وينبغـي تاليا توخي الحذر. نحن معتادون على تبادل القبلات في أعلى الدرج، لكننا لن نفعل ذلك... ومع ذلك ستكون قلوبنا حاضرة".

كلّ هـذه الأسـئلة والتخوفـات والتحديـات هـي مـن صلب السـينما نفسـها وواحـدة من مواضيعهـا، لذلك كان مهرجان كان عبر تاريخه الذي وثقته الكاميرا في ما تكتبه بنفسها عن نفسها.

خلف الكاميرا

فـي ظـل هـذه الجدليـة الجمالية، افتتح المخرج الفرنسـي ليوس كاراكس مسـابقة المهرجان بفيلمـه "أنيت"، وهو كوميديـا موسـيقية من بطولـة ماريون كوتيار وآدم درايفر مع فرقة "سـباركس" الأميركية الشهيرة التي تولت السيناريو والموسيقى.

وفي المسـابقة أيضـا أفلام لمخرجين سـبق أن رفعـوا السـعفة الذهبية، مثل أبيشـاتبونغ وبراسـيتاكول (السـعفة الذهبيـة عام 2010) بفيلمـه الأول باللغة الإنجليزيـة خـارج تايلانـد "ميموريا" والإيطالي ناني موريتي عن فيلمه "ثلاثة طوابق".

وكان لا يتغافـل أبدا عـن الربط بين حاضره وأمسـه، وذلك في سـعي دؤوب إلى إعطـاء هوية حيّـة ومرجعية دائمة لأعرق تظاهرة سينمائية في العالم.

بدا ذلـك واضحا في حفـل الافتتاح الـذي قدمتـه الممثلـة دوريـا تيلييـه بأسـلوب شـفاف وعميـق ورشـيق من خلال مونولوغ على شكل تحية للسينما وأهميتها في الحياة الثقافية للشـعوب. ذكرت تيلييه وشـددت على كلمة "سحر" فـي حديثها عن الفن السـابع. الجمهور الذي اجتمع في صالة "لوميير" الضخمة بدا متأثرا ومنسـجما مـع كلامها. قالت إن مـا تحبه في السـحر هو أنـه يعتمد على عمل النـاس الذين فـي الكواليس، أي كل الذين يشـتغلون خلـف الكاميرا. كلمة تيلييه لم تكن تخلو من الرومانسية الممزوجـة مع خفة الـدم، والتعرض إلى الجائحة بشيء من السخرية إلا أن أجمل ما قالته هو أن المهرجان لطالما كان مكانا كي يظهر الناس أنفسهم، والآن مع ارتداء الكمامـات يرون ولا أحـد يراهم حقا. ثم أردفـت ببعض المزح "جميل جدا أن نرى صالـة مليئة بمشـاهدين، ولا نعرف مَن هـم. ربما من الجيد أن نـرى من دون أن يرانا أحد".

أمـا الأكثـر عمقـا ودلالة فـي كون المهرجان يكرم نفسه بنفسه، فهو ما جاء في كلمة الممثلة الأميركية جودي فوستر التي منحت "سـعفة" فخريـة عن مجمل مسـيرتها المهنية التـي بدأتها قبل نحو خمسين عاما وهي في الثامنة من العمر.

ويذكـر أنـه في شـهر مايـو 1976، وعندما كان عمرها 13 عاما فقط، صعدت جودي فوستر السلالم في قصر كروازيت الفرنسي، وقدمت فيلم "سائق التاكسي" للمخرج مارتن سكورسيزي، وغادرت مع السعفة الذهبية.

وعادت جودي فوسـتر مـرة أخرى، بعـد خمسـة وأربعـين عامـا، لتتلقـى السعفة الذهبية هذه المرة لنفسها. ومنذ عـام 1976، جمعت أفلامها السـينمائية الكبيرة بـين المعايير العاليـة والنجاح الجماهيري، وقسّمت وقتها بين التمثيل (العديـد من الأعمـال، نحـو 50 فيلما)، والإخراج (4 أفـلام روائية)، وقد حصلت على جائزتي أوسكار.

قالت فوسـتر، وهي تشير إلى الفترة الماضية التي عاشـها الناس في الحجر الصحي "أليـس من الجميل الخروج من المنزل؟".

المخـرج الإسـباني ألمودوفـار، الذي تميـزت أفلامه بإعطاء البطولـة للمرأة، وصـف بدقـة شـديدة أهمية فوسـتر، متسـائلا مَـن كان ليظـن أن الفتـاة الصغيرة في "سائق التاكسي" ستصبح يوما ما هذه السيدة. وبفرنسية تتحدثها بطلاقة، قالت فوستر إن الحجر الصحي سـاعدها في إعادة اكتشـاف السـينما وأضحى مناسبة لها لمشاهدة العديد من كلاسيكياتها.

المهرجـان العريق حريـص على كل شـاردة وواردة، ولم ينـسَ الأفلام التي تم اختيارهـا العام الماضي فـي الدورة الملغاة وحملت ختم كان، فوجّه دعوة إلى صنّاعها للتواجد بين الحضور.

المخـرج الأميركي سـبايك لي رئيس لجنة التحكيم، قال في المؤتمر الصحافي المخصـص قبل الافتتـاح "كان هو أعظم مهرجان سـينمائي في العالم. السـينما ومنصّات المشاهدة يمكنها التعايش معا. في ما مضـى، كنّا نعتقـد أن التلفزيون يمكنـه قتـل السـينما، ولكن السـينما ستبقى وستعيش". وأضاف الرجل الذي كان يرتدي بدلـة زهرية اللون "المهرجان إعادة إطلاق للسينما بعد صدمة كورونا. إقامتـه تعني دفعـة للسـينما بعد أكثر من عام مـن الخوف وتوقـف الكثير من الأنشطة السينمائية".

أين العرب

ولسـائل أن يسأل: أين العرب من هذا المهرجـان الضارب في التاريخ والمشـرع على كل جهات الإبداع في الشرق والغرب؟ أيـن الكاميرا العربية ممـا وصل إليه فن الصـورة والخيـال في مختلـف أصقاع العالـم؟ هل كنا مجـرد مجاورين لضفاف المتوسـط، ولا تزور الأقدام العربية مدينة كان إلا للتسـوّق والتنـزه أو للتسـتر بالجهاد في أبشع الصور وأشدها قتامة، أم كان لنـا بعض الصـولات الموفقة فوق السـجاد الأحمـر، وإن كانـت سـريعة وخاطفة.

سـيكون فيلم "علّي صوتك" الذي تم إنتاجه من طرف شـركة "عليان للإنتاج" واسـتفاد مـن صنـدوق دعـم الإنتـاج السـينمائي المغربـي، هذا العـام ضمن 23 فيلمـا تتنافس على السـعفة الذهبية للمهرجان.

ويرصـد الفيلـم رحلـة التحـرر عبر موسـيقى الهيب هوب، من خلال تسليط الضوء على أحد الأحياء الشـعبية بالدار البيضاء، حي سيدي مومن، الذي بنى فيه المخرج مركزا ثقافيا، في محاولة منه ومن مجموعة من الناشطين الثقافيين والفنيين بالمدينـة مـن أجل انتشـال شـبابها من مخالب الإرهاب.

هـذا علـى مسـتوى المنافسـة حول الجائـزة الكبـرى فـي الأفـلام الروائية الطويلة، أما مسابقة "نظرة ما"، فتنافس المخرجـة التونسـية – الجزائرية، والتي تحمل الجنسية الفرنسية حفصية حرزي بفيلم "أم طيبة"، الذي يسرد حكاية مدبّرة منزل تحاول مساعدة ابنها المقبوض عليه بتهمة التورّط في حادث سطو.

وكذلك يسـعى المخرج اللبناني إيلي داغـر الحاصل على السـعفة الذهبية من قبل عن أفضل شـريط قصير بفيلم "موج 98" (2015)، إلـى الحصـول على الجائزة للمـرة الثانيـة بفيلمه "البحـر أمامكم" ضمـن برنامج نصـف شـهر المخرجين، الذي يحكي قصة الفتاة، جنى، التي تعود فجـأة إلى بيروت، في محاولة لاسـتعادة ذكرياتهـا وعاداتهـا وعلاقاتهـا التـي افتقدتها أثناء رحيلها.

أما المخـرج المصري، عمـر الزهيري فيشـارك فـي مسـابقة "أسـبوع النقاد" بأولـى تجاربـه الطويلة "ريـش"، الذي تـدور أحداثه في أجـواء خيالية حول أمّ تفنـي حياتها من أجـل زوجها وأولادها، وتعيـش حيـاة رتيبة داخل المنـزل، لكن حياتها تتبدل تماما عندما يفشـل ساحر في السـيطرة على ألعابه، ويحول زوجها إلى دجاجة.

وفي النهاية تختتم فعاليات أسـبوع النقـاد بفيلـم المخرجة التونسـية، ليلى بوزيـد "مجنـون فـرح"، الـذي يحكـي قصة شـاب في الثامنة عشـرة من عمره، وهو فرنسـي من أصل جزائري نشـأ في ضواحـي باريس، ويحـاول مقاومة نداء قلبه الذي نبض بالحب لشـابة تونسـية على مقاعد الدراسة في الجامعة.

الحقيقـة أن الحضـور العربـي وإن بـدا متفاوتا بـين دورة وأخـرى، وكذلك في حجم المشـاركة بين دولة وثانية، فإنه لافـت للانتباه من خلال أسـماء شـبابية واعدة في السنوات الأخيرة، ظهرت وسط أحـداث عاصفة وكسـرت الركـود المخيم الذي تسـبب فيه جيل من السـينمائيين ظلوا مسيطرين على الساحة.

سبايك لي رئيس لجنة التحكيم: كان هو أعظم مهرجان، في ما مضى كنّا نعتقد أن التلفزيون يمكنه قتل السينما ولكن السينما ستبقى وستعيش

أفلام مرت بكان

الأسـماء الموجودة في لجان التحكيم بـكان، تقيم الدليـل على هـذا الأمر مثل الممثل الجزائري الأصل طاهر رحيم، الذي شـارك لأول مرة في هذا المهرجان بفيلمه "النبـي" للمخرج جاك أوديـار عام 2009، وحصل على إعجاب النقاد حينها، ثم عاد في الدورة التالية ليفوز بجائزتي سـيزار لأفضل ممثل واعد وأفضل ممثل.

كذلك ينضم للجنة تحكيم مسـابقتي الأفـلام القصيـرة ومسـابقة "سـيني فونداسـيون" كلّ من المخرجة التونسـية كوثر بن هنية، التي ترشح فيلمها "الرجل الذي بـاع ظهره" لجائزة الأوسـكار هذا العام، حيث نافس في فئة الأفلام الروائية الدوليـة، والمخرج المصري سـامح علاء، الـذي فاز العام الماضـي بالجائزة الأولى والسـعفة الذهبية لأفضل فيلم قصير في دورة العـام الماضـي للمهرجان عن فيلمه "أخشى أن أنسى وجهك".

ولوحـظ تنامـي المواكبـة العربيـة للمهرجان من خلال منصات فاعلة ومؤثرة كمركز السـينما العربية الـذي عمل على إطلاق مجلة السـينما العربيـة، وتقديم جوائـز النقاد للأفـلام العربيـة وجائزة الإنجـاز النقـدي، وإطلاق قائمـة الـ101 الأكثر تأثيرا في العالم العربي.

الحقيقـة أن السـينما العربية كانت حاضرة فـي مهرجان كان منـذ منتصف سـتينات القرن الماضي. وقد رصد الناقد السـينمائي جوزيـف فهيم أبـرز الأفلام العربيـة التي شـاركت فـي مهرجان كان على مـدار تاريخـه، والتـي تتباين في موضوعاتها وجمالياتها ورواياتها. ومن هذه الأفلام:

"الحرام" (1965) للمخرج هنري بركات، ويتناول الفيلم قصة فلاحة مصرية تضطر إلى إخفـاء حملها بعـد تعرّضها لحادثة اغتصاب؛ خشية أن يلاحقها العار.

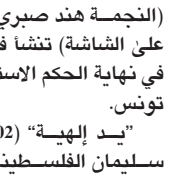

دوريا تيلييه

جميل أن نرى صالة مليئة بمشاهدين ولا نعرف مَن هم

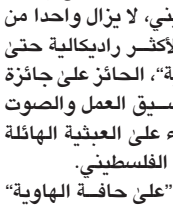

تييري فريمو

لن نتبادل القبلات أعلى الدرج ولكن ستكون قلوبنا حاضرة

"الأرض" (1969) للمخـرج يوسـف شـاهين، وبـرع الفنـان الراحـل محمود المليجـي فـي أدائـه لـدور أحـد صغار المزارعين الذيـن يواجهون ملاك الأراضي من أجل وصول المياه إلى أراضيهم.

وفيلم "وقائع سـنوات الجمر" (1975) للمخـرج محمـد لخضـر حامينـا، وهو الفيلـم العربي الوحيـد الفائـز بجائزة السعفة الذهبية، متفوقا على أفلام لمارتن سكورسـيزي، وفيرنر هيرتسوج، ومايكل أنجلو أنطونيوني.

فيلـم "ريـح السـدّ" (1986) للمخرج التونسـي نوري بوزيد، الذي وضع على الخارطـة لأول مرة مع فيلمه المثير للجدل عن نجار شـاب تهدد حياته المخاطر بفعل التحرش الجنسـي مـن قبل رئيسـه في العمل.

فيلم "خارج الحيـاة" (1991) للمخرج مارون بغـدادي، وهو قصـة حقيقية عن اختطاف وتعذيب مصور فرنسـي من قبل ميليشيا لبنانية في بيروت.

وفيلـم "صمـت القصـور" (1994) للمخرجة مفيـدة التلاتلي، ويتناول قصة غامضة عن ابنة خادمة في سـن المراهقة (النجمـة هند صبري فـي أول ظهور لها على الشاشة) تنشأ في منزل أرستقراطي في نهاية الحكم الاستعماري الفرنسي في تونس.

"يـد إلهيـة" (2002) المخـرج إيليـا سـليمان الفلسـطيني، لا يزال واحدا من الأفـلام العربيـة الأكثـر راديكالية حتى الآن. تميـز "يد إلهية"، الحائز على جائزة لجنة التحكيم، بتنسـيق العمل والصوت بدقة لتسليط الضوء على العبثية الهائلة للصراع الإسرائيلي الفلسطيني.

وأخيـرا فيلـم "على حافـة الهاوية" (2011) للمخرجـة للمغربية ليلى الكيلاني التـي حققت قفزة لها فـي صناعة الأفلام مـع هـذا الفيلم الشـجاع، الـذي يتناول دراما الجريمـة حـول فتاتـين تعملان بمصنع وتجـدان نفسـيهما تنزلقان إلى عالم الجريمة.

المهرجان يعيد الحياة إلى مدينة كان